

الكاهن بحسب القديس سمعان التسالونيكي

إعداد أسرة التراث الأرثوذكسي

ما هو الكاهن

يقول القديس سمعان التسالونيكي أن الكاهن قد غدَّ مستحقاً أن يكون "خادماً" (διάκονος) و"عاملاً" (Λειτουργός) للمسيح، و"حارساً" (παραστάτης) و"ناظرًا" (θεωρός) للأسرار، يقترب ويتناول منها، كما أنه "كارز" (κήρυξ) بالإنجيل. لم يعد هناك حجاب يقف بطريقه، إذ بإمكانه أن يرى النور الإلهي مباشرة دون أي عائق. لم يعد بحاجة إلى سارافيم لتناول الأسرار، لأنه يأخذها بالملقط (λαβίς). في الواقع، هو نفسه الآن السارافيم، بتكرسه للكهنة. إنه هو الذي يدعو الآخرين إلى الاقتراب من الله، لأنه الآن يحمل بين يديه الأسرار الإلهية ويخاطب المؤمنين ويحضهم على الانتباه ويهديهم إلى المسيح، وهو في الواقع طريق الآخرين ومرشدهم إلى النور. في الواقع، الكاهن هو في الوقت ذاته كاروويم، لأنه من خلال الأسرار يستطيع أن يرى بالكامل الواحد الذي يرى كل شيء، كما أنه نار تحمل سارافيمًا، لأنه يحمل الجمرة الحية. إلى ذلك، فإن الكاهن هو عرش، لأنه من خلال الليتورجيا والمناولة يقتني الواحد الحاضر في كل مكان والمستريح على الأرائك السماوية؛ وهو أيضاً ملاك كونه خادمَ الله ومقيم قداسه¹.

يشرح القديس سمعان أن الكاهن هو كل ما سبق، لا بطريقة خيالية، بل حقاً وصدقاً، لأنه لا يخدم الأسرار الإلهية "بطريقة صورية أو نمطية (رمزية) فقط"، بل هو يخدم فعلياً السيد الحقيقي الذي ترافقه القوات غير المادية في السماء. "في الواقع، يقوم الكاهن على الأرض بما تقوم به القوات غير المادية في السماء، لأن هذا هو ما كان خالق الكل مسروراً به وأراد أن يؤسسه، أي أنه يجب مراعاة الليتورجيا الواحدة نفسها في الأعلى كما في الأسفل"²

من الواضح أن لهذا الوصف خاصيتان أساسيتان، كلتاهما مرتبطتان بالرب يسوع المسيح. ترتبط الخاصية الأولى ارتباطاً وثيقاً بشخص المسيح، حيث أن الكاهن ينتمي كلياً للمسيح عن طريق أخذه هويته الكهنوتية منه، وكونه على اتصال دائم به، ورجوعه إليه دائماً. السمة الثانية هي أن خدمة الكاهن لها ارتباط مباشر بعمل المسيح وهي إشارة إلى هذا العمل الذي تم إنجازه لكل الخليقة، الحقائق التي فوق والتي تحت. هذه الصلة الوثيقة بين الكهنوت وشخص المسيح وعمله تتوضح في الفقرة التالية، والتي تشرح كيف تكشف خدمة الكاهن حقاً عن ماهية المسيح وما فعله من أجل العالم بأسره؛ المخلوق بوجه عام والبشرية بوجه خاص.

عمل المسيح ممتداً من خلال الكهنوت

يقول القديس سمعان أن خدمة الكاهن تكشف ما فعله المسيح من أجلنا عندما ظهر للعالم كإنسانٍ مثلنا. يمكن وصف هذا العمل على النحو التالي³:

1 PG 155:956AB.

2 Ibid. 956C.

3 Ibid. 956CD-957AB.

المسيح، وهو الوحيد غير المادي، بعد أن اتَّخذ المادة عن طيب خاطر، اتَّحد بالبشر الذين قدّموا الحواس المادية. من الأهمية بمكان هنا أنه، مَنْ هو بطبيعته غير مخلوق وبدون بداية، في رغبته بالاتحاد مع الخليقة، لم يكن متحداً بالطبيعة غير المادية والمخلوقة للملائكة - لأن الملائكة خُلِقوا من لا شيء، غير ماديين وخالدين بالنعمة ومشاركين في مجده حسب مقياس النعمة التي خصت لكل واحد منهم- بدلاً من ذلك، لبس المسيح جسدنا المخلوق واتحد بنا أقنومياً (ὁποστατικώς)، دون أن ينفصل عن الألوهية ودون أن يمتزج بالطبيعة البشرية التي نقل إليها أمجاد وفوائد الألوهية - "لأنه فيه يحل ملء اللاهوت جسدياً" (كولوسي ٩:٢).

الآن، كل هذا مرتبط بالكهنوت، لأنه كما ظهر المسيح في الأصل للعالم، كما سرَّ أو كما ارتضى، هكذا يكشف الآن عن نفسه من خلال الأسرار المقدسة للكهننة، ومن خلالهم للعالم! إن عمل المسيح الإلهي المذهل، الذي لا يستوعبه العقل البشري، قد أوكل إلى الكاهن الذي يخدم الليتورجيا ويؤسس الآخرين فيها. ما يفعله الكاهن هو أن يكشف عن المسيح من جديد، أي أن يقدمه فعلياً وبشكلٍ كاملٍ إلى العالم من خلال الأسرار المقدسة التي يتعامل معها وفقاً للترتيب الإلهي. بعبارة أخرى، يمثل الكاهن نعمة المسيح الدائمة والخلافية الممنوحة للعالم من خلال إقامة أسرار المسيح.

بحسب القديس سمعان، هنا تكمن كرامة الكهنوت العظيمة التي تفوق كرامة الملائكة. إن الأسرار التي يخدمها الكهننة ترتبط بحقيقة أن السيد، الذي يحوي كل الأشياء وهو غير مُستوعبٍ بذاته، يصبح حاضراً بالنسبة لنا. مع أنه لا يمكن لمسه، إلا أن الأيدي البشرية تلمسه. مع أنه غير مرئي، إلا أنه يخضع للحواس ويصبح منظوراً. مع أن العقل البشري لا يستطيع تصويره، إلا أنه يستقبله بطبيعتنا المتواضعة والساقطة، عن طريق الكهنوت الذي أسسه. هذه هي معجزة المعجزات: أن يظهر المسيح في الأسرار. أن يُعطى، يُحمل، يُتناول؛ أن يسكن فينا، ويجلب لنا السلام والكفارة والسند.

هذه الأسرار، كما يقول القديس سمعان، هي الحدّ الذي روايته هي الأكثر تناقلاً بين البشر، وهي أعظم هدية للبشرية، وأعلى قوة وسلطة ونعمة. بهذا يظهر الكهننة وهم بشر مصنوعون من التراب والطين ويشبهون ديدان الأرض، كسلطات وقوات سماوية (ملائكة). في الواقع، إن قوة الكهنوت تجعل البشر أعظم من هؤلاء الجنود السماويين. الكهننة هم شركاء في خليقة أقوى من خلال خدمة المعمودية المقدسة والأسرار الأخرى. لقد أصبحوا آباء لأبناء الله، أو آباء أولئك الذين أصبحوا آلهة بالنعمة. إنهم يتصرفون بطريقة تلغي آثار الخطيئة، وبالتالي، تحرر الأرواح وتفتح أبواب الملكوت، وتذوّب الرباطات الأبدية. الكهننة مخلون لأداء الأعمال الإلهية، باعتبارهم معاوني الله لخلاص البشر.

وعلى هذا الأساس، من الواضح أن الكهننة قد مُنحوا أعظم المواهب والعطايا، وعليه، هم أكبر المدينيين لله. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك لأنهم يقارنون بالقوات السماوية. هؤلاء الملائكة ذوو العيون الكثيرة ينظرون إلى مجد الله في كل وقت. إنهم يرتجفون ويرتجفون من هذا المنظر، ومع ذلك، إنهم يشعرون بالرهبة الكبرى عندما يلاحظون حكمة الله المتشعبة، التي يعرفونها من خلال الكنيسة، كما يقول القديس بولس. إن هذه

المراتب الملائكية في رهبة، بسبب طبيعتها المخلوقة وصلاح الله الذي لا يقاس، لكنها أيضاً مندهشة وخائفة من الأسرار الإلهية الرهيبة التي يتممها الكهنوت.

مشكلة الكهنة غير المستحقين وعلاجها

ومع ذلك، يقول القديس سمعان، إن الكهنة الموكلة إليهم هذه المهمة السامية والأكثر إلهية وهذه السلطة الرهيبة، غالباً ما يفشلون في تقديم خدمة لائقة. إنهم يستخدمون مناصبهم السامية كذريعة للأهواء وأساس للخبيثة. غالباً ما يقعون في خداع الشرير عندما يتولون مناصبهم بما فيه من السلطة كما لو كان حكماً أو مدنياً. يصيبهم نوع من الجنون عندما ينسبون هذه الصفة إلى مناصبهم ويقومون بمثل هذه الأعمال الفاسدة، التي أقيمت مناصبهم لشجبها. إنهم ينخدعون بالاعتقاد بأنهم باستخدام سلطتهم وتقديم خدماتهم بشكل تعسفي، فإنهم يؤدّون مهامهم فعلياً. في الواقع، هم أبعد ما يكونون عن تحقيق هذا، وفي الواقع، هم قد اتبعوا الاتجاه المعاكس.

كيف يتجنّب الكهنة مثل هذا الخداع؟ كيف يمكنهم التأكد من عدم الوقوع في مثل هذا الخداع الرهيب؟ يجد القديس سمعان أول إجابة واقعية لدى القديسين، لا سيما في موقفهم وأسلوب حياتهم، لكنه في النهاية يتطلّع إلى نعمة الله كردّ على تدخل الشر في البشر، بمن فيهم الكهنة.

إن الكهنة المحسوبين بين القديسين هم مرشدون إلى السلطة الحقيقية. قبل أن يؤتمنوا على الكهنوت، قد فهموا طبيعته الإلهية والسامية، ومثل السيرافيم، ذوّوا خجلاً وحياءً وطرحوا كل فكر ادّعاء للكهنوت. ومع ذلك، بمجرد أنهم مُنحوا ذلك، ظهرت أعمالهم وأسلوب حياتهم بوضوح وكيفية محافظتهم على موقفهم الصحيح تجاهه وتمكنهم من تحقيق شخصيته الحقيقية في ذاتهم. إذن، أسلوب حياة الكهنة الورع هو أول إجابة واقعية للبحث عن كهنوت نقي وصالح. جميع الكهنة، كما يقول القديس سمعان، مدعوون بالنعمة الإلهية ليكونوا شركاء في استحقاق القديسين. كلهم ملزمون بترتيب حياتهم بحسب المثال الذي قدّمه القديسون. إنهم قادرون على تدارك مشكلة الاختلاف عن استقامة الكهنوت باتباع مثال القديسين، أي بقياس خدمتهم وحياتهم على مقياس خدمة القديسين. والسبب في ذلك يكمن في حقيقة أنه عندما يلجأ الكهنة إلى القديسين، فإنهم يجدون جواباً آخر، أكبر من ذلك، يقدمه القديسون أنفسهم. إنهم يجدون نعمة الله المقدّسة التي تتخطى كل شر.

في التحليل الأخير، يقول القديس سمعان، إن السمة الحقيقية للكهنوت أو استقامته لا تقع على عاتق الكهنة أنفسهم، ولا هم يحققونها. ولا حتى المتقدسين منهم، الذين تطهروا وتحرروا من الأهواء الأرضية ويعيشون حياة الملائكة؛ حقاً، ولا حتى الملائكة أنفسهم. في النهاية، الله وحده هو الذي يحقق ذلك. لأن الله وحده، كما يقول القديس سمعان، هو الذي أوجد من العدم كل الأشياء الموجودة، وهو وحده القادر على صونها وتثبيتها، وفي الواقع، تبديلها وتغييرها. إذاً، يحتاج الكهنة أيضاً، لكونهم بشراً، إلى الإنعاش والتحول، لأنهم أيضاً، كمثال لجميع البشر، قد تورطوا في "انهيار السقوط الرهيب؛ فقدوا صورتهم الحقيقية والصالحة، جمالهم الأصلي،

4 Ibid. 957CD-960A.

بعصيان الله الأبدى الخالد الذي لا يتغير، وطاعة الشيطان المتمرد الذي يكره كل خير ويسرّ بكل شر". ما يقوله القديس سمعان هنا هو أن "الكهنة غير المستحقين" هم بشر غير مستحقين يقعون في الشر ويحتاجون إلى نعمة الله لينجوا منه. لكن ما هي طبيعة الشر؟ وكيف يقع البشر فيها؟ هذا ما يفحصه القديس سمعان بعد ذلك حتى يصل إلى توضيح كيف تعيد النعمة الإلهية في النهاية كاهناً غير مستحق إلى استقامة خدمته.

